فقلت: «علي أن أخبرك بالحقيقة، وعليك أن تتأهبي لها يا آنسة ماري، لأنها محزنة. سيكون من الصعب عليك تحملها، لكن لا مفر من ذلك. عماك هذان ليسا عميك على الإطلاق. إنهما محتالان حقيران.»

لا شك أنها دهشت لذلك، لكن بما أنني كنت قد جاوزت أصعب المراحل، مضيت في كلامي وأخبرتها بكل التفاصيل، وصفت كل ما حدث منذ أن التقينا هذا الشاب الأحمق على الزورق البخاري إلى اليوم الذي احتضنتْ فيه الملك وقبلته عندما التقت به.

فوَقَفتْ وقالت وقد اتقد وجهها بالحمرة: «هذا المتوحش! تعال، لا تضيع أي وقت. سنجعلهما ينالا عقابهما ويُكسوان بالقطران والريش ويلقيان في ماء النهر!»

فقلت: «هذان المحتالان قاسيان، وعلي أن أسافر معهما وقتًا أطول سواء أشئتُ أم أبيت. أفضل ألا أخبرك بالسبب. إن كنت تنوين الوشاية بهما، فسأحتمي في هذه البلدة منهما، وسأكون على ما يرام، لكن شخصًا آخر لا تعرفينه سيقع عندئذ في ورطة كبرى، وعلينا إنقاذه. أليس كذلك؟ علينا هذا بالطبع؛ إذن لا يمكننا أن نشي بهما بعد.»

واتتني وأنا أتحدث إليها فكرة لأتخلص من هذين المحتالين؛ فطلبت منها أن تمكث في منزل صديقتها الذي يقع على بعد بضعة أميال، فيما أعمل أنا على خطتي، بعدها تعود هي إلى هنا، وإن لم أكن أنا قد عدت قبل الساعة الحادية عشرة، فستخبر هي الجميع بحقيقة الملك والدوق.

بعد أن غادَرَت ماري جين، خرجت من المنزل قاصدًا المزاد الذي انعقد في ميدان البلدة العام. كان هذا في وقت متأخر من عصر ذلك اليوم، وقد استغرق بيع كل شيء وقتًا طويلًا. ظل الملك يلقي الخطابات ويقاطع الدلال، فيما تظاهر الدوق بأنه يتحدث بلغة الإشارة، وباعا في آخر الأمر كل شيء، لكن لما أوشك المزاد على الانتهاء، أتى حشد من ميناء الزوارق البخارية يصيح ويضحك صانعًا جلبة.

صاح من بالحشد: «ثمة وريثان آخران لثروة بيتر ويلكس العجوز! أخوان آخران!»

سار الحشد مع سيد كبير السن وآخر أصغر سنًّا يبدو وسيمًا. لشد ما صاح الناس وضحكوا! لكنني لم أجد في الأمر ما يضحك. حسبت أن الملك والدوق سيبتئسان قطعًا، لكنهما تأملا القادِمَين، ورسم الملك على وجهه تعبيرًا وكأنه يشعر بالاستياء من وجود محتالين كهاذين القادمين، فيما بدا على السيد اللطيف كبير السن الارتباك. أدركت على الفور أنه يتحدث بلكنة إنجليزية حقيقية، لا تشبه على الإطلاق لكنة الملك الزائفة.

بعدئذ دار الكثير من الجدل. قال القادمان الجديدان إنهما هارفي وويليام ويلكس الحقيقيان، وإن هناك ما أخرهما في رحلتهما إلى هنا، وإن عليهما الآن أن يبرهنا على أنهما

يقولان الحقيقة، فقال الدكتور روبينسون العجوز إنه أدرك أن الملك والدوق يكذبان وطالب بإعادة الستة آلاف دولار، فأخبره الملك أن هذا المال سرقه العبيد الذين غادروا البلدة منذ ذاك.

انقسم أهل البلدة في البداية بين معتقد أن الملك والدوق هما أخوا ويلكس الحقيقيان وبين مصدق للقادمين الجديدين، لكنهم لما استمعوا إلى الأخوين الحقيقيين أدرك عدد أكبر من الناس الصادق والكاذب، غير أن الملك لعب دوره جيدًا وأجاب على كل الأسئلة على نحو جيد حتى أصبح إثبات كذبه صعبًا.

طلب السيد العجوز في نهاية الأمر من الملك أن يصف الوشم الذي حمله صدر المتوفى، فقال الملك إنه سهم أزرق صغير، أما السيد العجوز فقال إنه الأحرف الأولى من اسم المتوفى: حرفا الباء والواو، فيما قال الطبيب الذي عاين الجثمان إنه لم ير أي وشوم، فقرر الجميع نبش قبر المتوفى لإلقاء نظرة على جثمانه، وهذا سيحسم حسمًا نهائيًّا من يدلي بالحقيقة.

أؤكد لكم أنني شعرت بالخوف، لكن لم يكن هناك مهرب. أمسك الحشد بنا وسار نحو المقبرة وبدأ الكثيرون في الحفر ولم يمض وقت طويل قبل أن يحل الظلام، ويهطل المطر وتصفر الرياح، ويسطع البرق ويدوي الرعد، إلا أن القوم لم ينتبهوا لهذا؛ كان الجميع يضع نصب عينيه القبر.

استخرجوا التابوت في نهاية الأمر، وبدءوا في إزالة غطائه، ثم صاح شخص ما: «ثمة كيس من الذهب!»

فأفلتني الرجل الذي يمسك بمعصمي واقترب من التابوت مع الجميع، فأخذت أركض بأقصى سرعتي. ركضت عبر البلدة عائدًا في المطر. لم أستطع الرؤية إلا عندما سطع البرق، لكنني واصلت الركض إلى أن أبصرت في آخر الأمر النهر حيث اختبأ جيم والطوف.

عندما قفزت إلى متن الطوف قلت: «جيم انهض! علينا أن نغادر الآن!»

سعد جيم بشدة لرؤيتي، وكلانا كان مسرورًا لتخلصنا من الملك والدوق. قبل أن تمضي بضع ثوان كنا نسير مع ماء النهر، لكن تنامى إلى سمعي صوت مألوف. أرهفت السمع، فلما لمع البرق مجددًا كانا هناك! الدوق والملك! أتيا في زورق وجدفا نحونا بأقصى سرعة.

جاهدت بكل قواي لأمنع نفسي من البكاء.

غضبا مني لأنني فررت، لكن لما تحدثا عن الكيفية التي فرا بها، اتفقا على أني قمت بالصواب. اتضح أنهما بدورهما قد فرا عندما تحرك الحشد لرؤية كيس الذهب الذي يحتويه التابوت. كانا غاضبين لأنهما ضيعا هذا المال ولم يستطيعا أن يفهما كيف وصل كله إلى التابوت، ثم اتهم كل منهما الآخر بمحاولة سرقته، فلما خلدا أخيرًا إلى النوم مساءً، ظللت ساهرًا وأخبرت جيم بكل ما حدث.

الفصل الخامس عشر

اختفاء جيم

لم نرسُ في أي بلدة مجددًا عدة أيام، ظل الطوف يطفو بنا وحسب مع ماء النهر، لكن ما إن شعر المحتالان بأنهما قد نأيا بأنفسهما عن الخطر، حتى بدآ في الاحتيال على القرى مجددًا. جربا كل الخدع والألاعيب لجني المال، لكن لم يبد أن أيًّا منها ينجح، وأفلسا تمامًا في نهاية الأمر، فاستلقيا على الطوف يعتصران ذهنيهما، شاعرين بالحزن والإحباط الشديد.

ثم أخذا يسيران معًا وحدهما بعد برهة، فتسلل القلق إلي أنا وجيم، لم يعجبنا ما بدا عليه الأمر. فطنا إلى أن المحتالين يخططان لعملية أخرى، فقررنا أن ندير ظهرينا لهما ما إن تسنح الفرصة ثم أن نغادر ونتركهما.

قصد الملك البلدة التالية لتقصي أمورها، بعدها تبعته أنا والدوق بعد بضع ساعات، فوجدناه يثير المشكلات ويتورط فيها، فلما تشاجر هو والدوق، فررت؛ فركضت عائدًا إلى الطوف وناديت جيم، لكنني لم أتلق جوابًا. لقد اختفى! فبحثت كثيرًا، إلا أنني لم أجده، وفي نهاية الأمر لم أقو على منع نفسي من البكاء، فجلست أبكي.

رأيت صبيًّا صغيرًا يسير بالقرب مني، فوصفت له جيم وسألته إن كان قد رأى من يشبهه، فقال الصبي إن جيم في مزرعة رجل يدعى سيلاس فيلبس.

ثم أضاف: «جيم هذا كان عبدًا هاربًا وقد أمسكنا به الآن.» ثم أردف قائلًا: «وضعتْ مكافأة قدرها مائتا دولار للقبض عليه. رأيت بنفسي الملصق الذي يعلن عنها. أفصح رجل عجوز لرجال البلدة عن مكانه مقابل أربعين دولارًا فقط، بدا هذا كالعثور على النقود في الطريق.»

فجلست على الطوف وحاولت أن أصل إلى ما علي فعله بعدئذ. ظللت أفكر إلى أن آلمني رأسي، لكنني لم أجد مخرجًا من هذه الورطة. على الرغم من كل ما قمنا به من

أجل هذين الوغدين، فسد كل شيء لأن قسوتهما سمحت لهما بخيانة جيم مقابل أربعين دولارًا.

فكرت في كتابة خطاب للسيدة واتسن، لعلها تدرك ما الذي يجب فعله، لكن خطر لي بعدئذ أنني قد أقع في ورطة لمساعدة جيم على الهرب والتسبب في كل هذه المشكلات، لكنني تذكرت كل المعروف الذي أسداه جيم إلي، ومساعدة كل منا الآخر وعنايته به. كنت أعلم أن جيم سيضطر إلى العودة إلى حياته القديمة إن أرسلت هذا الخطاب، لكن إن كان بوسعي إنقاذه فسيصبح حرًّا من جديد، حتى إن عنى هذا أن يظن الناس بي السوء، لم أهتم بظن الناس بي، وعزمت على مساعدته للحصول على حريته.

خبأت الطوف والزورق وكل معداتنا، ثم اتجهت إلى مزرعة فيلبس، فلما بلغتها وجدتها هادئة موحشة. كانت مزرعة قطن صغيرة ذات سور حديدي يحيط بساحة مساحتها فدانان وبمنزل كبير من أحطاب الأشجار مطلي بماء الكلس، لما سرت نحوه، أخذت بعض الكلاب تنبح، ولم تتوقف إلا بعد أن خرجت امرأة في الخامسة والأربعين أو في الخمسين من العمر، ويتبعها طفلان وبعض العبيد. الجميع كان مبتسمًا.

قالت المرأة: «إنه أنت أخيرًا! أليس كذلك؟»

فأجبتها بلا تفكير: «نعم، يا سيدتي.»

فاحتضنتني بقوة وشرعت في البكاء.

ثم قالت لي إنني على عكس ما توقعتْ لا أشبه والدتي.

ثم أردفت: «كم أنا سعيدة برؤيتك! يا أطفال، هذا ابن عمكم توم! تعالوا لتحيته. حسبنا أنك ستصل إلى هنا قبل بضعة أيام. كنا في غاية القلق.»

اختلقت قصة تبرر سبب تأخر زورقي، وفيما تحدثنا حاولت أن أحصل على معلومات عن الشخصية التي أتظاهر بأنني هي، كما حاولت أن أعرف أي شيء عن جيم. خمنتُ أن المرأة هي زوجة السيد فيلبس، ولما أدخلتني إلى بيتها، خمنت أن الرجل الذي بالداخل هو السيد فيلبس.

سأل الرجل عندما رآني: «من هذا؟»

فقالت السيدة: «من برأيك؟ إنه توم سوير؟»

الفصل السادس عشر

توم سوير

عندما سمعت اسم توم سوير، كاد أن يغشى علي، لكن لم يكن هناك وقت للتفكير سألاني شتى الأسئلة عن أنباء عائلة توم في موطني، وشعرت بالسعادة الشديدة عندما عرفت من علي أن ألعب دوره، إذ كنت على دراية بكل المعلومات وكافة أخبار عائلة سوير، فتحدثت كثيرًا وأدليت لهم بما يكفي من الأنباء عن ست أسر من عائلة سوير، على سبيل المثال: علمت على الفور أن المرأة العجوز التي التقتني هي حتمًا سالي خالة توم، مما يعني أن العجوز هو العم سيلاس.

شعرت بالارتياح الشديد لكوني أتظاهر بأنني توم سوير، لكن بعدئذ خطر لي احتمال أن يأتي توم من الشارع الذي سلكته بالضبط، وأن يطلعهم على هويتي قبل أن أعطيه إشارة بألا يفضح الأمر. لم أستطع أن أجازف بذلك، فأخبرتهم أنني سأقصد مركز المدينة لجلب متاعي، وفي طريقي إلى هناك التقيت توم سوير كما توقعت، فناديته، فتوقف وفغر فاه عن آخره وحسبني شبحًا.

قال: «أنا لم أؤذك قط. لماذا تود أن تعود وتطاردني؟»

فقلت له: «أنا لم أعد، ولم أمت قط.»

تطلب الأمر بعض الشرح قبل أن يتفهم توم موقفي، بعدها شعر بالحماسة؛ إذ أحب المغامرات. أخبرته كل شيء عن المحتالَين، وعن الكيفية التي ألقي بها القبض على جيم، وأخبرته بأن خطتي هي أن أدعي أنني توم إلى أن أصل إلى طريقة أحرر بها جيم. أردت أيضًا أن أتيقن من أنني بمنأى عن الدوق والملك.

فقال توم إنه يعلم ما الذي ينبغي فعله بالضبط، فعدت أولًا إلى مزرعة فيلبس بمتاعه، ثم أتى توم بعد نصف ساعة وتظاهر بأنه أخوه سيد.

فقالت له الخالة سالي: «عجبًا. إنها لمفاجأة. لم نتوقع مجيئك. توقعنا أن يأتي توم وحسب. لم تكتب أختي لي أن أحدًا آخر قادم.»

قال: «لم يكن من المفترض أن آتي، لكنني توسلت إلى أمي كثيرًا فسمحت لي أن آتي في آخر لحظة.»

بعدئذ تناولنا العشاء. حاولت أنا وتوم أن نصل إلى بعض الأنباء عن جيم، لكننا لم نستطع معرفة شيء عنه، ثم ذكر توم أنه رأى ملصقًا إعلانيًّا عن عرض مقام في البلدة، وسأل إن كان بإمكانه الذهاب إليه، لكن رفض العم سيلاس، لكنني أدركت أنه العرض الذي يقيمه الدوق والملك، فأخبرت توم عنه مساء ذلك اليوم وقررنا أن نتسلل خلسة لتحذير أهل البلدة من هذين المحتالين.

فلما بلغنا مركز البلدة مساءً، رأينا حشدًا من الناس في الشارع، جميعهم يحمل مشاعل والكل يصرخ ويهتف في حماس ويطرق الأواني القصديرية وينفخ الأبواق، فابتعدنا عن طريقهم بأسرع ما أمكننا، ثم رأينا الملك والدوق أثناء مرورهما وهما مكسوان بالقطران والريش ويجلسان على قضيب سكة حديدية قديم يحمله الحشد. عرفتهما مع أنهما كانا مكسوين بالقطران والريش، وأشفقت عليهما. لم أحسب أنني قد أغضب منهما ثانية، كان مشهدًا فظيعًا. قد يقسو البشر بعضهم على بعض إلى حد مخيف.

الفصل السابع عشر

إنقاذ جيم

أخبرني توم في اليوم التالي أنه رأى أحد العبيد يجلب بعض الطعام إلى كوخ صغير يبعد قليلًا عن المنزل. كنت أنا بدوري قد رأيته، فأخبرني توم أن جيم قد يكون هناك. قال توم إن العبد أغلق باب الكوخ بمفتاح كان العم سيلاس يحمله، فخطر لي على الفور أن علينا سرقة المفتاح مساءً وإطلاق سراح جيم، لكن توم كانت لديه أفكار أخرى.

قال: «لا شك أن هذا سينجح، لكنها خطة بسيطة للغاية. تخلو من أي نكهة.»

علمت أن توم ستكون لديه خططه الخاصة، وكنت أعلم أنها ستتسم بالصعوبة والخطورة وهو سيغيرها على الأرجح عشر مرات في الدقيقة، وهذا هو ما فعله. أراد أن يطلق سراح جيم، لكن كان عليه أن يفعل هذا بطريقته الخاصة.

قصدنا الكوخ مساء ذلك اليوم. كانت بأحد جوانبه فتحة ظننت أنه يمكن لجيم التسلق للمرور من خلالها إن استطعنا نزع أحد ألواح الكوخ.

لكن توم قال: «آمل أن نجد طريقة أكثر تعقيدًا من هذه؛ طريقة غامضة، صعبة وجيدة.»

وجدنا بعض الأدوات فشعر توم بالسعادة.

قال: «سنحفر لاستخراجه. سيستغرق هذا أسبوعًا! هذه خطة مثالية.»

تبعنا في اليوم التالي العبد الذي جلب الطعام إلى الكوخ، وبعدما تحدثنا إليه كثيرًا أقنعناه بأن يسمح لنا بالدخول. كان المكان مظلمًا، لكن جيم كان به، يجلس على فراش متهالك وهو يستند إلى الحائط والحزن باد عليه.

قال جيم: «هاك! يا إلهي! هل هذا توم سوير؟»

أخبرناه بأننا سنطلق سراحه وأن عليه ألا يقلق إن سمع صوت حفر ليلًا. سيكون نحن من يحفر، ليس إلا. لم يتسن لجيم وقت إلا للإمساك بيد كل منا وشكره، بعدها اضطررنا للمغادرة قبل أن يأتي العبد الذي يجلب الطعام ليبحث عنا.

قبل أن يمضي وقت طويل أخذ توم في تغيير خطته. رأى أن الحفر لإخراج جيم من الكوخ سيكون أمرًا هينًا للغاية؛ كان جيم أيضًا بحاجة إلى سلم من الحبال، وتعين عليه أن يكتب خطابات عن مدى شعوره بالوحدة. امتلك توم العديد من مثل هذه الأفكار التي تشرّب بها من كل قصص المغامرات التي قرأها.

بدأنا في الحفر تحت الكوخ مساءً بعد أن خلد الجميع إلى النوم. أراد توم في البداية أن نحفر بأيدينا لكن هذا استغرق وقتًا طويلًا، فقال في نهاية الأمر إنه لا بأس على الأرجح من استخدام المعاول والمجاريف التي استعرناها، فحفرنا إلى أن تعبنا من المواصلة. بلغت الحفرة عمقًا كافيًا يسمح بالزحف من تحت جدار الكوخ والدخول.

بعدئذ أخذنا في اليوم التالي ورقة ليكتب عليها جيم، وجلبنا له بعض الملاعق وشمعدانًا ليستخدمه كقلم، كما أخذنا بعض الشموع والأطباق إذ رأى توم أنها قد تخدمنا.

تسللنا مساءً إلى الكوخ وأيقظنا جيم. كان سعيدًا برؤيتنا حتى إنه كاد يبكي. أراد أن يرحل معنا على الفور، لكن توم أوضح له أن هذه ليست الطريقة الصائبة للفرار، قال إن علينا أن ننقذ جيم وفقًا لما تقضيه قصص المغامرات، وقد كان خبيرًا في هذا الصدد، فأيدناه أنا وجيم، فأوضح الكيفية التي على جيم أن يكتب بها على الورقة والأطباق، وأخبره بالكيفية التي يصنع بها سلمًا من الحبال. كان الأمر برمته مربكًا للغاية، لكن جيم قال إنه سيحاول القيام بكل هذا، فشعر توم بحماسة بالغة وقال إنه لم يتسلَ كذلك من قبل.

الفصل الثامن عشر

مغامرة توم

بدأت الخالة سالي والعم سيلاس في الأيام التي تلت يلاحظان اختفاء بعض الأغراض من المنزل: الورق، والملاعق، والشموع، وأغراض أخرى رأى توم أنها لازمة لإطلاق سراح جيم، فحاولت أنا وتوم خداعهما بإبدال بعض هذه الأشياء بأخرى وأخذ أشياء أخرى في وقت لاحق.

أيضًا أزعجت خطة توم جيم الذي كان من المفترض أن يكتب قصائد ويرسم شعارًا. المشكلة هي أن جميعنا كنا نجهل كيفية القيام بذلك، لكن توم أحسن اختلاق الشعار لجيم، غير أنه مرت ثلاثة أسابيع، وشعرت أن إطلاق سراح جيم يستغرق وقتًا طويلًا.

عندما أصبحنا أخيرًا جاهزين لإطلاق سراح جيم تعين علينا أن نكتب خطابًا تحذيريًّا للخالة سالي والعم سيلاس من مجهول غامض. قرأ توم كل شيء عن هذا الأمر في إحدى كتبه، فترك ذات ليلة خطابًا تحذيريًّا يقول: «حذار. ستقع المشكلات عما قريب. انتبهوا. من صديق مجهول.»

وضع توم الخطاب خلسة تحت باب المنزل الأمامي، ثم جلب في الليلة التالية جمجمة وعظمتين متصالبتين ترمزان إلى الموت للباب نفسه، وفي الليلة التي بعدها جلب تابوتًا إلى الباب. كان الأمر برمته مخيفًا جدًّا وشديد الغموض، بث القلق الشديد في نفس الخالة سالي والعم سيلاس. أقل صوت سمع بالخارج جعلهما يقفزان من مكانيهما، وحسب الناس أن الأشباح في كل مكان.

بعدئذ ترك توم خطابًا آخر: «أتمنى أن أصبح صديقًا لكم، وأود أن أحذركم من أن عصابة بائسة تسعى إلى اختطاف اللص الهارب الليلة، وهم يحاولون إلى تلك اللحظة

إخافتكم لتمكثوا في المنزل ولا تزعجوهم. أنا فرد من العصابة، لكنني أود أن أعتزلها وأحيا حياة شريفة من جديد.»

ذكر الخطاب أن العصابة ستتسلل إلى المزرعة في منتصف الليل، وأخبر أسرة فيلبس بالكيفية التي تلقي بها القبض على العصابة.

عدت إلى المنزل في اليوم التالي فيما كان توم يعد لعملية الإنقاذ، اجتمع هناك حشد كبير! كان هناك خمسة عشر فلاحًا جميعهم يحملون أسلحة، فشعرت بالخوف. تحدثوا جميعًا بصوت خفيض وبدا عليهم التوتر والارتباك، فركضت مبتعدًا وعثرت على توم عندما ابتعدت، فأخبرته عن هؤلاء الرجال.

فالتمعت عيناه ببريق وقال: «لا! حقًّا؟! أليس هذا رائعًا.»

فقلت له: «أسرع، علينا أن نطلق سراح جيم الآن.»

حللنا القيد الذي قيد ساق جيم، ثم سمعنا رجالًا قادمين، فاختبأنا جميعًا عندما فتحوا باب الكوخ. كان الظلام يخيم على المكان ولم يرنا أحد ونحن نزحف خارجين من الحفرة التي صنعناها. تسللنا إلى الخارج متجهين إلى السور، وكدنا نبتعد لولا أن سروال توم علق بقطعة من الخشب، فسمعنا شخص ما وصاح: «من هناك؟ أجب وإلا أطلقت الرصاص!»

فلم نجب، بل ركضنا بلا توقف. دوى صوت الرصاص ومرق من حولنا بأزيز وسمعنا الرجال يصيحون قائلين: «ها هم، إنهم متجهون نحو النهر! الحقوا بهم يا فتية، وأطلقوا سراح هذه الكلاب!»

بلغنا النهر وعثرنا على المكان الذي خبأت فيه زورقي، فقفزنا إليه وجدفنا لننجو بحياتنا صوب الجزيرة التي خبأت بها الطوف إلى أن ابتعدنا عن هؤلاء الرجال، فلما صعدنا أخيرًا الطوف قلت: «الآن يا جيم أصبحت حرًّا من جديد. أراهن أنك لن تصير عبدًا مجددًا.»

فقال جيم: «كم أدينا عملًا رائعًا يا هاك. صُممت الخطة على نحو رائع. لم يكن بمقدور أحد أن يأتي بخطة أفضل من تلك.»

كنا في قمة السعادة، لكن توم كان أكثر سعادة منا؛ لأن رصاصة أصابته في ساقه، فلم أعد أنا وجيم نشعر الشعور نفسه؛ إذ آلمت الرصاصة توم ألمًا شديدًا وجعلته ينزف بغزارة، فمزقنا أحد قمصان الدوق لصنع ضمادة له، لكنه أراد أن يفعل ذلك بنفسه.

قال توم وهو ما زال يشعر بالحماسة لفرارنا: «فعلنا هذا ببراعة، أليس كذلك؟»

أدركت أنا وجيم أن توم بحاجة إلى طبيب، لكن توم لم يرد هذا؛ إذ لم يحدث هذا في أي من كتب المغامرات الخاصة به، إلا أنه وافق في آخر الأمر أن يتركني أذهب لإحضار الطبيب، فهو لم يملك خيارًا إلا هذا، لكنني جعلته يعتقد أنه قراره، وجعلني أقسم بأن أعصب عيني الطبيب لئلا يعرف مكان مخبئنا، فقلت له إنني سأفعل هذا وسيختبئ جيم إلى أن يغادر الطبيب.

كان الطبيب الذي عثرت عليه رجلًا مسنًّا يبدو طيبًا للغاية. أخبرته بأن أخي قد أصيب في حادثة صيد وأننا نريده أن يساعدنا دون إخبار أسرتنا.

فسأل: «من أهلك؟»

فأجبت: «آل فيلبس.»

فقال: «آه.» ثم قال بعد برهة: «كيف أصيب؟»

– «راوده حلم وكاد أن يتسبب في مقتله.»

فقال الطبيب: «يا له من حلم!»

لما رأى زورقي، قال إنه لن يتسع لكلينا، وطلب مني المكوث في مكتبه إلى أن يعود، فلم يكن لدي الوقت لأجادله، أخبرته بمكان الجزيرة التي يوجد عليها توم، فذهب إليها.

لم يمض وقت طويل قبل أن يغشيني النعاس في هذا المكتب، فلما استيقظت كانت الشمس قد طلعت، فقصدت منزل الطبيب، لكن ساكنيه أخبروني بأن الطبيب لم يعد بعد. اعتقدت أن تلك الأنباء تبدو سيئة لتوم، وأردت أن أعود أدراجي إلى الجزيرة على الفور، فغادرت منزل الطبيب، لكنني بعد أن جاوزت أصعب المراحل اصطدمت بالعم سيلاس!

قال لي: «توم، أين كنت طيلة هذا الوقت أيها الوغد؟»

فقلت له: «لم أغب قط. كنت أبحث عن العبد الفار أنا وسيد.»

فقال: «حسنًا. وأين ذهبتما بحق السماء؟ خالتكما شعرت بقلق بالغ حيالكما.»

– «كنا بخير. لقد تبعنا الرجال والكلاب وركبنا قاربًا في الماء وضللنا الطريق قليلًا ثم نمنا هناك حتى وقت قريب. وسيد في مكتب البريد. كنا بصدد العودة إلى منزلنا.»

فأتى العم سيلاس معي إلى مكتب البريد لنحضر سيد، لكنه لم يكن هناك بالطبع، فقال العم سيلاس إن علينا أن نتجه إلى المنزل فورًا، والتقط خطابًا مرسل إليه ثم غادر.

لما عدنا إلى المنزل سعدت الخالة سالي بشدة لرؤيتي وضحكت وبكت واحتضنتني، إلا أنها كانت أيضًا تشعر بغضب شديد، وقالت إنها ستغضب أيضًا من سيد ما إن يعود إلى المنزل.

امتلأ المنزل بالمزارعين وأسرهم. تحدث الجميع بحماسة عن الليلة السابقة والخطابات والرسم الغامض. كنت أعلم أنني وتوم نقف وراء كل هذا، لكنني لزمت الصمت.

لم يعد توم إلى المنزل على الإطلاق هذا اليوم، فقصد العم سيلاس مركز البلدة عدة مرات للبحث عنه ثم حل المساء ومعه بات العم سيلاس والخالة سالي يشعران بقلق بالغ. سهرت الخالة سالي طوال الليل تنتظر توم، وخرج العم سيلاس مجددًا للبحث عنه قبل الإفطار، لكنه لم يجد أثرًا له، فلما عاد تذكر الخطاب الذي التقطه في اليوم السابق، وأعطاه للخالة سالي التي قالت: «عجبًا! إنه من سانت بيترسبرج؛ من أختي!»

لكنها قبل أن تفتحه أوقعته وركضت نحو الباب، إذ لمحت شيئًا بالخارج، رأيته أنا أيضًا. كان هذا توم سوير ممددًا على مرتبة، مع الطبيب العجوز وجيم الذي قيدت يديه خلف ظهره ومن خلفهم الكثيرون يسيرون في إثرهم.

بدأت الخالة سالي في البكاء واحتضنت توم. كان يشعر بتعب شديد، ولم ينبس بكلمة، لكن الخالة سالي والعم سيلاس سعدا بشدة عندما وجداه حيًّا. صعد بعض من هؤلاء القوم بتوم إلى الطابق العلوي، فيما تبعت أنا الحشد الذي ابتعد مع جيم. حسبوا أنه المسئول عن كل المشكلات التي وقعت الليلة الماضية وغضبوا منه غضبًا شديدًا، لكنه لزم الصمت وتظاهر بأنه لا يعرفني، وصحبوه إلى الكوخ نفسه كما فعلوا من قبل، إلا أنهم في هذه المرة قيدوه بالكثير من القيود ووضعوا حراسًا خارج الكوخ، وعاملوه بقسوة شديدة إلى أن طلب منهم الطبيب أن يحسنوا معاملته.

قال الطبيب: «عندما عثرت على الصبي استطعت معالجة جرحه بسهولة، لكنه لم يكن في حالة تسمح لي بأن أتركه وأطلب المساعدة. تدهورت حالته أكثر فأكثر وهذى بشتى الحماقات، فقلت إن علي أن أطلب له المساعدة، وما إن قلت هذا حتى خرج هذا العبد من حيث اختبأ وقال إنه سيساعدني، وقد فعل، وأحسن مساعدتي إلى حد بعيد؛ ساعدني على الاعتناء بالصبي إلى أن رأينا بعض الرجال يمرون بنا في قارب بالنهر، فتركهم يكبلون يديه ولم يثر المشاكل ونحن عائدون به مع الصبي إلى المنزل. إنه ليس رجلًا سيئًا أيها السادة.»

فألان هذا قلوب الكثيرين له. كنت ممتنًّا لهذا الطبيب العجوز لأنه أسدى إلى جيم معروفًا طيبًا، واتفق الرجال على أن جيم قد أحسن صنعًا ونزعوا عنه الكثير من قيوده.

الفصل التاسع عشر

النهاية

شعر توم في الصباح التالي أنه أفضل حالًا بكثير. استيقظ وأنا والخالة سالي في غرفته.

فقال وهو ينظر إلي: «عجبًا، أنا في المنزل. كيف حدث ذلك؟ وأين الطوف؟»

فقلت له: «الطوف بخير.»

فسألني: «وماذا عن جيم.»

فأجبته: «بخير كذلك.» لكن كان من الصعب جدًّا أن نتحدث والخالة سالي في الغرفة.

فقال: «جيد! رائع! الآن جميعنا بخير وبمأمن! هل أخبرت خالتي بالأمر؟»

كنت سأجيب بنعم، لكن الخالة سالي قاطعتني وقالت: «بم يخبرني يا سيد؟»

فقال توم: «بالكيفية التي جرى بها الأمر برمته.»

فقالت: «ما الأمر برمته؟»

– «الأمر برمته؛ أعني كيف أطلقت أنا وتوم سراح العبد الفار.»

– «رباه! عم يتحدث هذا الصبي؟»

– «نحن أطلقنا سراحه. أنا وتوم فعلنا هذا. وفعلنا هذا ببراعة أيضًا.»

ثم أخبرها بالأسابيع التي قضيناها في التخطيط، والأغراض التي أخذناها من المنزل، والخطابات والرسومات التي تركناها وعن مطاردة الرجال لنا وإطلاقهم الرصاص علينا.»

فقالت: «لم أسمع بمثل هذا من قبل. إذن كان هذا أنتما أيها الوغدان. أنتما من أحدث كل هذه المشكلات وأخاف الجميع إلى هذا الحد.»

غضبت غضبًا شديدًا، لكن توم شعر بالفخر والسعادة الشديدة حتى إنه لم يستطع احتواء فرحته، إلا أنه بالطبع لم يعد بهذه السعادة عندما علم أن جيم لم يعد حرًّا. فنهض وجلس منتصبًا وطلب إطلاق سراح جيم.

قال: «إنه يتمتع بحريته كأي شخص آخر.»

فقالت هي له: «عم تتحدث؟»

فأجابها: «لقد عهدته طوال حياتي كما عهده توم. السيدة واتسن توفيت قبل شهرين وقد واتاها شعور بالذنب الشديد بعدما غادر جيم لأنها أرادت بيعه، فأطلقت سراحه في وصيتها.»

فقالت الخالة سالي: «إذن لماذا بحق السماء تكبدت كل هذا العناء لمساعدته على الفرار إن كنت تعلم أنه حر؟»

فأجابها: «بالطبع من أجل المغامرة!» ثم حدق في الباب وقال: «الخالة بولي!»

كانت الخالة بولي تقف وهي تبدو لطيفة وودودة كملاك. ركضت الخالة سالي إليها واحتضنتها وبكت، فزحفتُ متسللًا إلى تحت الفراش. حيت الخالة بولي توم فقالت الخالة سالي: «هذا ليس توم، إنه سيد. توم كان هنا قبل لحظة. أين هو الآن؟»

فقالت الخالة بولي: «تعنين أين هاك فين.» وطلبت مني أن أخرج من تحت الفراش.

بعدها اتضح كل شيء. أخبرت الخالة بولي أختها والعم سيلاس عني. كان الخطاب الذي أوشكت الخالة سالي على قراءته — قبل أن يعود توم — من الخالة بولي التي كاتبتها لتخبرها بأنها آتية لزيارتها؛ سمعت الخالة بولي أن توم وسيد كلاهما هنا، ولما كانت تعلم أن سيد لديها في بيتها، أرادت أن تكتشف حقيقة الأمر.

لم نلبث أن حررنا جيم من قيوده، ولما علمت الخالة بولي وسالي والعم سيلاس بمساعدته للطبيب افتخروا به، وأعطوه كل ما أراد أن يأكله ووفروا له مكان إقامة ملائمًا.

تحدثت أنا وتوم كثيرًا عن القيام بالمزيد من المغامرات معًا، لكنني قلت إنني لن أستطيع أن أصحبه إذ لم يتبق معي أي نقود. لم يكن لدي شك في أن والدي قد استحوذ على أموالي كلها من القاضي ثاتشر بحلول هذا الوقت.

فقال توم: «لا لم يفعل هذا. المال كله هناك. لم يعد والدك منذ مغادرتك، أو أنه — على أقل تقدير — لم يعد قبل أن أترك البلدة.»

عندئذ بدت على جيم الجدية الشديدة وقال: «إنه لن يعود مجددًا يا هاك.»

فسألته: «لم يا جيم؟»

لم يرد أن يقول شيئًا، لكنني أصررت على أن يجيبني، حتى فعل.

قال: «هل تذكر المنزل الذي رأيناه طافيًا على النهر وبداخله رجل ميت؟ أتذكر كيف أنني نظرت إلى الرجل ولم أردك أن تنظر إليه؟ حسنًا، أنت تستطيع أن تحصل على مالك متى شئت؛ لأن هذا الرجل كان والدك.»

شُفي توم ولم يعد هناك الكثير لأكتب عنه. وهذا أمر يسعدني؛ فلو كنت أعلم مدى صعوبة تأليف كتاب، لما شرعت في ذلك. لن أفعل هذا ثانية.

وإن كنت أعتقد أنني قد أرحل ثانية عما قريب. تقول الخالة سالي إنها ستتبناني وتهذبني. لا أستطيع احتمال هذا، فقد مررت به من قبل.